www.christianlib.com

رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي

مقدمة

سبق وزار بولس مدينة فيلبي (أع ١٦) وهي مدينة كولونية يُعامل أهلها معاملة المواطنين الرومان في القانون والحقوق والواجبات (أع ١٦: ١٢). وتقع في مقاطعة مكدونية شمال اليونان، وقد كانت مدينة تجارية لم يكن فيها مجمع لليهود؛ ولكن كان فيها بعض النساء المتعبدات (أع ١٦: ١٣) (New Bible Dictionary, 1962, 918).

ويتضح من رسالة بولس لأهل فيلبي إنَّه كتبها في السجن (١: ١٢–٢٦). ويقول الرأي التقليدي إنه كتبها في سجنه الأخير في روما؛ ولكن بالبحث تبيَّن أن الرأي قد يكون غير صحيح لأسباب عدة منها: وعده لهم بالزيارة (١: ٢٧؛ ٢: ٢٤)، بعكس وجهة بولس أثناء سجنه في روما والتي كانت تجاه زيارة الغرب نحو إسبانيا (رو ١٥: ٢٣، ٢٤)؛ بالإضافة إلى قرب المسافة بين مكان سجنه ومدينة فيلبي كما هو واضح من زيارات تيموثاوس وأبفرودتس له (٢: ١٩–٣٠)، بخلاف المسافة الكبيرة بين روما وفيلبي؛ وكذلك القيود التي كان يتكلم عنها في الرسالة لفيلبي، والتي تتعارض مع الحرية التي كان يتمتع بها في روما (أع ٢٨: ٣٠). ولذلك نشأ اقتراحان آخران: قد يكون كتبها أثناء سجنه في قيصرية (أع ٢٣)؛ أو في سجن يُظن حدوثه في أفسس (أع ٢٠: ١٨؛ ١كو ١٥: ٣٢) بسبب قرب أفسس من فيلبي ووجود دار ولاية فيها (١: ١٣). ولكن ليس من السهل ترجيح أي من الاحتمالات الثلاثة؛ وإنما الحقيقة الثابتة هي أن الرسالة قد كُتبت من السجن، وهو ما يقدم لنا حقيقة هامة حول استعداد المسيحي للسجن في سبيل مبادئه وأفكاره (Francis Foulkes, New Bible Commentary, 1973, 1245-1246). وبالرغم من ذلك السجن، إلا أن الرسالة ككل تعكس مفهوم الفرح غير المبني على الظروف.

البنية الأدبية

١: ١–١١ استهلال: تحية، شكر وصلاة

١: ١٢– ٢: ٣٠ تقرير

٣: ١– ٢١ تحذير

٤: ١– ٩ نصائح ختامية

٤: ١٠– ٢٠ شكر على العطية

٤: ٢١– ٢٣ ختام

التفسير

١: ١–١١ استهلال: تحية، شكر وصلاة

بدأ بولس رسالته بالتحية مُرفقًا معه تيموثاوس كمؤسس شريك للكنيسة (أع ١٦) ومبعوث لها (في ٢: ١٩– ٢٤) كما فعل في رسائل أخرى (٢ كو؛ كو؛ ١ تس؛ ٢ تس؛ فل). ثم قدم نفسه كعبد ليسوع المسيح وليس كرسول بخلاف ما يفعله غالبًا؛ وذلك لأن الكنيسة هنا لم يكن عندها شك في رسوليته، كما أن هذا يخدم غرض بولس في الرسالة وهو: توضيح قيمة التواضع والوحدة بين أعضاء الكنيسة. وأكد أيضًا في تحيته على أنها لكل المؤمنين «القديسين» الذين في فيلبي، رابطًا أساقفة وشمامسة الكنيسة بحرف الجر «مع» (*syn*)؛ مما يعني اشتمال المؤمنين في دائرة القديسين مع الأساقفة والشمامسة (P. T.O, Brien, 1991, 47).

ثم يقدم بولس تحيته المعتادة النعمة (*charis*) والسلام (*irini*) والتي يعتبرها العلماء مزجًا بولسيًا بين: التحية اليونانية، النعمة؛ وترجمة التحية العبرية، سلام؛ مضافًا لهما الفكر المسيحي للنعمة والسلام. وقد راعى بولس هنا أن تشتمل بداية رسالته على العناصر الثلاثة المكونة لمقدمة أي خطاب في ذلك العصر من: راسل، ومرسل إليه، وتحية (Stephen Fowl, 2005, 15). وفي هذه التحية، ينفرد بذكر المسيح ثلاث مرات كعنصر مشترك مع عناصر التحية: ناعتًا نفسه كراسل عبدًا للمسيح؛ وفي الثانية، يرسل للفيلبيين القديسين في المسيح؛ وفي الثالثة، يحيهم بالسلام والنعمة من المسيح.

ويعود بولس ويقدم الشكر لله في كل حين. ويستخدم هنا ضمير المتكلم المفرد ليقدم نفسه ككاتب للرسالة رغم أنه قدم معه تيموثاوس في تحيته (١: ٣؛ را. ، كو ١: ٣). وسبب (*epi*) شكره لله أحد أمرين، حسب ترجمة العبارة، فإما أن تكون: «عند كل ذكري إياكم» أو «بسبب كل ذكركم لي». والمرجح هو الترجمة الثانية لأنها توضح السبب من شكر بولس لله، كما أنها تربطه بعدد ٥ الذي يبدأ بحرف الجر (*epi*) أيضًا. والجدير بالذكر أن كلمة ذِكر (*mneia*) هي كلمة خاصة ببولس وتعني تذكر أو تَفَكُّر.

ثم يشكر بولس أهل فيلبي وكما هو واضح من مجمل الرسالة. الشكر في الأصل كان لأجل مشاركتهم (الشركة–*koinonia*) في الماضي والحاضر من خلال عطاياهم المادية له (ع. ٥؛ ٤: ١٠–٢٠). وإن كان الرسول قد أوسع دائرة الشكر تشمل تذكرهم له (ع. ٣)، والمشاركة في الإنجيل (ع. ٥). وصلاته لأجلهم في كل أدعيته

www.christianlib.com

وصلاته (ع. ٤) أن تكمل فيهم هذه الشركة إلى يوم المسيح الذي سيحدث في المستقبل. وذلك ليس مبنيًا على ثقته في الفيلبيين أنفسهم؛ بل ثقته في صاحب هذا العمل (ع. ٦).

ثم يتشارك الرسول معهم مؤكدًا أنه يهتم ويفكر (*fronew*)، ورد هذا الفعل ٢٦ مرة في العهد الجديد، منهم ١٠ في فيلبي فيهم كلهم (كلكم، ع. ٧؛ را. ، ٤، ٨) ليس لأجل عطاياهم المادية؛ ولكن لأنهم قريبون إلى قلبه وشركاء معه في النعمة والمحاماة عن الإنجيل وتثبيته حتى وهو في قيوده (ع. ٧). ويربط بولس هنا مشاركتهم معًا (*koinonia*) باشتراكهم معه (*synkoinonia*) والتي ترتبط بما قبلها أي «في قيوده، والمحاماة (*apologia*)، والتثبيت (*bebaiwsis*). ومصطلحا المحاماة والتثبيت هما مصطلحان تقنيان يرتبطان بالقضاء في ذلك الوقت، وهما يوازيان الدفاع والبراءة في عصرنا.

ويعود مؤكدًا اشتياقه لهم، مُشَهدًا الله على هذا، وهو ما يعكس علاقة الرسول الحميمة بكنيسة فيلبي (ع. ٨). ثم يختم بصلاة قصيرة واضعًا مستقبل علاقتهم بالله نُصب عينيه، متمنيًا أن تزداد محبتهم المرتبطة بالمعرفة والفهم في تمييز الأمور المتشابكة ليكونوا مُخلصينَ، فتكون النتيجة أن يكونوا بلا عثرة، ومملوئين من ثمر البر (ع. ٩-١١).

١: ١٢-٢: ٣٠ تقرير

١: ١٢-٣٠ الوضع الراهن وتقدم الإنجيل لقد أنهى بولس مقدمته للرسالة وها هو يبدأ في هذه الأعداد بالدخول في محتواها. فيطمئن بولس الفيلبيين قائلاً: «أريد» ويضيف لهذا الفعل مصدرًا هو «أن تعرفوا»؛ وكأنه يوضح لهم الصورة كاملة لمعرفة ما يحدث، ويقدم لهم كذلك الغرض من الكتابة. ثم يشرح الرسول حالته في السجن التي أدت لانتشار الإنجيل بعكس توقعاتهم (ع. ١٢؛ را. أف ٦: ٢١، كو ٤: ٧)، حتى أنه صار معلومًا للقريبين منه: «دار الولاية»، والبعدين عنه: «باقي الأماكن» (ع. ١٣). ويُبعد بولس نفسه عن دائرة الاهتمام وينتقل إلى الحديث عن الإنجيل، مؤكدًا أن قيوده شجعت الإخوة على المجاهرة بالإنجيل (ع. ١٤). ويفرح الرسول بولس بتقدم الإنجيل بعيدًا عن دوافع المجاهرين: سواء كانت سلبية من حسد وغيرة، أو إيجابية (ع. ١٥). الأمر الذي يؤدي إلى نتيجة مستقبلية وهي الخلاص، سواء خلاص الناس الذين يُقَدم لهم الإنجيل أو خلاصه هو شخصيًا من السجن (ع. ١٨)، الذي يتم بتفاعل الدور البشري «طلبتكم» مع الدور الإلهي المكمل «مؤازرة (*epichorigia*) روح.. المسيح» (ع. ١٩؛ را. أف ٤: ١٦).

ويكون مصدر تحقيق الخلاص هذا هو الانتظار والرجاء الذي يتعظم في كل حين؛ أي ليس في المستقبل فقط، بل الآن أيضًا؛ أي أن رجاء هذا الخلاص لا يتحقق بالموت ولكن بالحياة (ع. ٢٠، ٢١). ولم يستخدم الرسول الاسم من «الحياة والموت» (بالرغم أنه استخدمهما في ع. ٢٠)؛ بل يستخدم المصدر من الفعلين «يحيي ويموت». وكأنه قصد أن يقول: إن كينونة الحياة هي المسيح وكينونة الموت هو الربح. ثم يُطلع الرسول الفيلبيين على صراعه مستخدمًا التعبير «محصور» (*sinechw*)، والذي يعني الشدة وتضيق الخناق ليصف ما يمر به. ويقدم الرسول بهذا الدليل العملي والقاطع أهمية وجوده هنا على الأرض، مقارنًا ذلك بعظمة وجوده مع المسيح (ع. ٢٢- ٢٤). وفي النهاية، يتمنى أن يحضر إليهم، الأمر الذي يُزيد من فخرهم لأن صلاتهم أدت لوجوده معهم (ع. ٢٥- ٢٦).

ثم يختم هذه الفقرة بنصائح تلخص ما سبق، وهذه النصائح بمثابة مقدمة لما هو لاحق وهو أن يعيشوا (*politeuomai*) والتي تعني «أن يكونوا مواطنين»، وهي كلمة خاصة للفيلبيين لأن للمواطنة معنى خاصًا عندهم إذ أنهم مواطنون رومانيون. والمواطنة حقيقة في وطنهم الجديد الذي هو الإنجيل من خلال الوحدة فعليهم: أن يثبتوا في روح واحد، ويحاربوا (*sunelthew*) بنفس واحدة، ليس في حضوره فقط بل في غيابه أيضًا (ع. ٢٧). وأن يكون هذا بلا خوف (*ptiromenoi*) أو تراجع، فما يتصوره الآخرون أنه للهلاك هو لهم للحياة (ع. ٢٨). لأن الحياة مع المسيح ليست حياة إيمان فقط؛ بل أيضًا حياة ألم وجهاد (ع. ٢٩). حيث بولس نفسه مثال حي لذلك (ع. ٣٠).

وهذا يشجع المواطنين السماويين في وسط تحديات حياتهم وبلدانهم. ففي الوقت الذي نرى فيه ضيقات تواجه المسيحيين في بعض البلدان العربية، وخاصة في ظل التقلبات السياسية الحالية، نستطيع أن نرى في كلمات بولس التشجيع المطلوب. فالألم والتعب ليسا دليلا على هلاكنا وهلاك بلداننا ولكنه بالإيمان بيِّنة على خلاصنا وخلاصها. إلا أن الدور الذي ينبغي أن نقوم به هو أن نثبت في روح واحد وأن نواجه هذه التحديات بلا خوف أو تراجع.

٢: ١-١٨ تمثلوا بتواضع المسيح وكونوا نورًا للعالم يعالج الرسول مشكلة التحزب عند الفيلبيين فيرجو منهم أن يكونوا واحدًا لهم نفس الفكر والمحبة، متحدي النفس، وأن يكون أي وعظ (*paraklisis*) في المسيح، وأي تسلية وعزاء (*paramithion*) فللمحبة، ولشركة الروح، أو للتراحم فيما بينهم (ع. ١). وبهذا يكون التواضع هو سمة علاقاتهم، ولا يكون فيما بينهم خصام وتحزب. وأن يُفَضل كل واحد منهم الآخر (ع. ٣)؛ وأن يهدف إلى ما هو للآخر وليس ما لنفسه (ع. ٤) لأن هذا يتمم فرحه بهم (ع. ٢). وفي ترنيمة رائعة (ع. ٥- ١١) يقارن بولس بين تواضع المسيح وما ينبغي أن يكونوا عليه، وسواء أكانت هذه الترنيمة من تأليف بولس أم أنها ترنيمة معروفة عند المسيحيين في ذلك الزمان (WBC, CD)، فإنها تخدم غرض بولس في مقارنة ما يطلبه من الفيلبيين

www.christianlib.com

بما فعله المسيح نفسه في الصليب، مقدمًا نموذجًا حيًا للتواضع الذي ينبغي أن يكون فيهم (ع. ٥)من خلال ترنيمة كريستولوجية تتناغم فكريًا مع يو ١٣: ٣– ١٧. ويبدأها بالمسيح الذي ليس فقط في صورة الله؛ بل مساوٍ لله (ع. ٦) الذي بالرغم من مكانته قام بفعل غير متوقع إذْ «أخلى نفسه»، فصار ليس فقط إنسانًا بل عبدًا (ع. ٧)، وأطاع الله حتى موت الصليب (ع. ٨). فكانت النتيجة مرة أخرى عكس ما نتوقعه وهي أن الله رفَّعه فوق كل اسم (ع. ٩؛ را. أع٢: ٣٦)، والغاية في كل ذلك أن تجثو له كل ركبة ويعترف به كل لسان (ع. ١٠–١١).

ومما سبق، ينتقل بولس للدرس العملي في الطاعة. فعليهم أن يطيعوا في غيابه كما في حضوره لكي يتمموا خلاصهم (ع. ١٢) الذي هو نتاج تعاون مع الإرادة الإلهية ويؤدي بالتالي أن يُتمم (*katergazomai*) العمل (ع. ١٣). وهو ما يعني أن يكون كل شيء بلا مجادلات باطلة (ع. ١٣). ثم يقدّم الرسول الغاية في ذلك وهي أن يكونوا بلا لوم أمام الله، ونورًا للعالم وسط الظلمة والجيل الفاسد، وينبع هذا من إيمان فَعَّال مستمد من عمل الله فيهم (ع. ١٦). وهكذا يصبح إيمانهم المضحي ذبيحة، وخدمة تفرِّح الله، ويسر بها بولس (ع. ١٧)، فيشتركوا هم معه في هذا الفرح أيضًا (ع. ١٨).

٢: ١٩–٣٠ تيموثاوس وأبفرودتس بعد أوضح بولس في مقدمة الرسالة وضعه الراهن في السجن الذي أدى إلى تقدم الإنجيل، يبيّن لهم الآن مشكلتهم التي تتمركز حول غياب الوحدة والتناغم فيما بينهم، مقارنًا بين ما هم عليه وبين علاقة المسيح بالآب، ثم يختم كلامه بما يجب أن يكونوا عليه من طاعة له حتى في غيابه. وكما هو واضح أن بولس لا يستطيع أن يأتي إليهم، لذلك سيرسل لهم تيموثاوس الذي سبق وقدمه في بداية الرسالة (ع. ١٩). ولكن لأسباب غير واضحة كان على بولس أن يقدم دفاعًا عن تيموثاوس. ولهذا يقدمه بولس على أنه رجل يهتم (*merimnaw*) بهم كما بولس، ويعمل بأمانة، ويطلب ما لله (ع. ٢٠– ٢١)، وبعدها يقدم لهم اختباره (*dokimi*) باختصار (ع. ٢٢). ثم يعدهم بإرساله بعدما يرتب أحواله (ع. ٢٣) راجيًا أن يأتي هو أيضًا إليهم (ع. ٢٤).

ويود بولس أن يرسل إليهم أبفرودتس أيضًا (ع. ٢٥)، ولكن يبدو أن حضوره إليهم غير كاف ولذلك سيرسل تيموثاوس (WBC, CD). كان أبفردوتس من فيلبي (ع. ٢٦)، وقد جاء لبولس حاملًا له هدية (را. ٤: ١٨). ويتضح من كلام بولس أن أبفرودتس كان من المتوقع أن يكون في فيلبي ولكن مرضه أخّرَهُ. لذا أراد بولس توضيح شدة هذا المرض كعذر لتأخره (ع. ٢٧)، ووعدهم أن يرسله بأقصى سرعة (ع. ٢٨) مقدمًا تقريرًا مختصرًا عنه وعن منفعته لهم لكي يقبلوه بفرح وينال حقه في الكرامة لديهم (ع. ٢٩–٣٠).

٣: ١–٢١ تحذير

٣: ١–١١ الماضي بعدما تكلم بولس عن الموضوع الرئيس وهو الوحدة بين الكنيسة في فيلبي، ينتقل للحديث عن موضوع جديد (٢كو ١٣: ١١). فيبدأ برسالة واضحة وهي أن يفرحوا في الرب ويذكرهم أن هذه الوصية ليست مكررة أو ثقيلة (*okniros*)، ولكنها وصية مُؤَمنة أي أن معرفة الوصية تعطيهم الأمان (ع. ١). وفي نقلة جديدة يبدأها بولس نمو الخطاة والمفتخرين بختانهم الذي لا يزيد عن كونه قطعًا (*katatomi*) في الجسم، فيقرنهم بفعلة الشر (ع. ٢) وهو ما شرحه في العدد التالي، لأنهم يتكلون على الجسد أو ذلك القطع في الجسد. ثم يستخدم الختان كتعبير قاصدًا به الختان الحقيقي للتعبير عن «الذين يعبدون الله بالروح» (ع. ٣)، وفخر ختانهم هو يسوع المسيح (غل ٦: ١٢– ١٥).

ثم يوضح بولس دوافعه وُيبعد عن نفسه شُبهة أنه يقول هذا لأنه غير يهودي أو غير مختتن. ولكنه بالرغم أنه مختتن ويحق له بالأولى الافتخار مثلهم؛ إلا أنه لايزال يؤمن بعدم جدوى الختان (ع. ٤). ثم يقدم قائمة تثبت أحقيته في الافتخار بالجسد (ع. ٥، ٦) فيوضح أنه: مختون في اليوم الثامن (تك ١٧: ٢)، وإسرإيلي من سبط بنيامين، وعبراني نقي في جنسه الإسرإيلي «من العبرانيين» تؤكد عبرانية والديه أو تربيته العبرانية المحافظة بحسب التقليد اليهودي)، ثم يؤكد انتمائه لجماعة الفريسيين التي هي جماعة معروفة بتشددها في حفظ الناموس. وليس هذا فقط بل يعلن غيرته على حفظ الناموس عن طريق اضطهاده السابق للكنيسة. وكنتيجة لكل ما سبق يعلن أن برَّه الذي في الناموس هو كامل وبلا لوم.

وبعد هذه القائمة الطويلة التي يمكن أن يفتخر بها أي يهودي، يؤكد بولس أن هذا كله خسارة (*zimia*) أو لا شيء بسبب المسيح (ع. ٧). فقد حسب (فعل في زمن التام يعبر عن حدث في الماضي يستمر تأثيره للحاضر) الرسول كل شيء خسارة والآن يحسب (في زمن المضارع) (ع. ٨)، ليس فقط بالنسبة لقائمته السابقة، بل كل شيء آخر مقارنة مع معرفة المسيح هو نفاية مقابل ربح المسيح، الذي فيه وُجِدَ وهو ما يعني اشتراكه مع المسيح مقارنًا بين البر الذي في الناموس والبر الذي بالإيمان بالمسيح (ع. ٩). وبهذا يتشارك بولس مع المسيح في الألم ويكون معه في الموت منتظرًا أن تتحقق فيه قوة قيامة المسيح (ع. ١٠) من خلال بلوغه لقيامة الأموات (ع. ١١).

٣: ١٢–٢١ نحو الهدف قدم بولس فيما سبق وضعه في الماضي والحاضر، والآن يسعى بولس لتقديم المستقبل من خلال تقديم نفسه كنموذج للفليبيين. فيؤكد بولس أنه رغم كل ما سبق إلا أنه لم يحصل على كل شيء ولم يَكمُل. ولكنه لازال في مرحلة

www.christianlib.com

المحاولة كي يدرك ما قد أدركه المسيح بقيامته من الأموات (ع. ١٢). وهو يفعل هذا من خلال أنه ينسى الماضي، وينظر إلى ما هو قدام (ع. ١٣). ويعقد بولس مقارنة بين سباقات الماراثون عند اليونانيين والفوز بها، وبين الركض في الحياة المسيحية للفوز بجائزتها (*brabeion*) التي هي دعوة الله في المسيح (ع. ١٤؛ را. أيضًا ١كو ٩: ٢٤).

وبطريقة تهكمية يخاطب بولس الكاملين أو من يظنون أنفسهم كاملون أن يعرفوا عدم كمالهم. وحتى إن كانوا غير مقتنعين بذلك فلينتظروا أن يعلن لهم الله ما قاله وكأنه يُشهد الله على ما قال (ع. ١٥). وعلى كل حال، كان بولس متأكدًا أنهم سيقتنعون بما قاله ويبني على هذا طلبه أن يتبعوا هذه المعايير ويجعلوها محور تفكيرهم واهتمامهم (ع. ١٦). والآن للمرة الثالثة، يطلب منهم بولس أن يكونوا متشبهين به في السعي نحو الكمال. فيوضح للفلبيين الغرض من كل حديثه السابق فهو لا يعرف الكثير عنهم وهو في سجنه، ولكن يطلب منهم ألّا يظنوا أنهم وصلوا إلى الكمال (ع. ١٧). فبولس نفسه بالرغم من كل ما كان عليه ليس كاملًا، لذلك عليهم أن يحذروا لأن هناك من وقع في هذا الخطأ. ونحن لا نعرف عمن يتحدث بالضبط؛ وإن كان البعض يعتقد مما سبق إنه قصد المسيحيين من الأصل يهودي، أو اليهود بشكل عام الذين افتخروا بكمالهم في الناموس، والبعض الآخر يعتقد أنهم المسيحيون الذين رفضوا العمل الأخيري للصليب (WBC, CD). ولكن بغض النظر عن هويتهم لكنهم أناس كان يتحدث بولس عنهم كثيرًا وكأنه يؤكد أن هذا استمر فترة أو تكرر، ولكنهم ظنوا أنهم كاملين فسقطوا وصاروا أعداء للصليب فكانت النهاية هي الهلاك (ع. ١٨) مقارنًا نهايتهم بما يسعى بولس له في عدد ١١ وهو قيامة الأموات. ثم يشرح بولس معنى عدائهم للصليب فإلهتهم تكون بطونهم (رو ١٦: ١٨) وكأنه يقارن بين السعي للكمال كفكر سماوي وتأليه البطون وإشباع الغرائز كتوجه أرضي. وفي هذا إشارة قد تكون لليهود الذين اهتموا كثيرًا بقوانين الأكل والشرب (مر٧: ١ – ١٦) (WBC, CD). وهو ما يعني بالنسبة لبولس أن مجدهم في العار (ع. ١٩).

ثم يختم بولس فقرته بتسبحة كريستولوجية تتشابه مع تسبيحته في الفصل الثاني. وقد يبدو غريبًا عدم ارتباطها بما يسبقها من أعداد، ولكنها تخدم ما سبق في أنها تقارن من كان مجدهم في الأرضيات بمن جعلوا مجدهم في انتظار التشبه بجسد المسيح المُقام الذي له كل شيء بسبب قدرته الإلهية في أن يخضع كل شيء، هذا هو السعي للكمال من وجهة نظر بولس (ع. ٢٠ – ٢١).

الهوية

مقدمة

تُمثل قضية الهوية تحديًا جديدًا في العالم اليوم ولا سيما في المنطقة العربية. فهوية الشخص وكذلك حرية المجتمع والدولة أصبحت محل نقاشات عميقة، وربما في بعض مناطق في العالم يتجاوز النقاش إلى الحرب المسلحة. فلقد شهد التاريخ الإنساني صراعًا قويًا حول مفهوم ومعنى الهوية لذلك أصبح من المفترض التعرف على هذا المفهوم ومناقشته.

في العهد الجديد

هناك مواقف عديدة في العهد الجديد تتحدث عن الهوية فشخص السيد المسيح تم انتسابه لمدينة الناصرة، وكذلك تحدث الرسول بولس عن هويته الرومانية، كذلك تحدث الرب يسوع في المرحلة الأولى عن أن رسالته موجهة إلى الأمة اليهودية. واجتازت الكنيسة الأولى صراعًا حول دخول الأمم إلى المسيحية. وينقل العهد الجديد لنا الحوار العميق بين الانتماء الأرضي وكذلك السماوي، في هذا السياق تأتي قضية الهوية كقضية هامة، والتي من خلالها نصنع جسرًا يربط الانتماء باللحظة الراهنة.

في العالم العربي

حاليًا في العالم العربي، لا توجد سوى هوية واحدة تحظى بالشرعية ألا وهي الهوية الدينية. ومع تأثير الإسلام السياسي. وكذلك بعض الأقليات المسيحية كما في حالة الموارنة، يحل الدين محل كل أشكال الهوية. فمن الشائع أن تسمع الناس يعرفون أنفسهم أولًا بأنهم مسيحيون أو مسلمون وبعد ذلك يشيرون إلى جنسيتهم. على عكس ذلك يكون المفهوم التعددي الذي يشجع تنوع المفاهيم والانتماءات إلى كيانات اقتصادية وثقافية ودينية وعرقية وسياسية متنوعة.

ويمكننا القول إن الدين يُعَد هو الركيزة الأهم التي يقوم عليها تحديد هوية الحضارة. فالدين هو القوة المركزية التي تحرك وتدفع الشعوب. وهو يؤكد أن الانفصال بين السلطة الدينية والدنيوية قد خلق ثنائية سائدة في الثقافة الغربية. لكن في الشرق، فإن الفصل بين الدين والسياسة لم يوجد سوى في الحضارة الهندية، بينما في الإسلام نجد أن الحاكمية لله، وفي الصين واليابان الحاكم هو الله (Huntington, 64-70).

إن فرضية أن التحديث الاقتصادي والاجتماعي سوف يؤدي إلى العصف بمكانة الدين كعنصر جوهري في الوجود الإنساني لم يمكن إثباتها. فالتحديث الاقتصادي والاجتماعي أصبح أمرًا

www.christianlib.com

عالميًا، وفي الوقت نفسه حدث إحياء عالمي للدين (Huntington, 95). هذا الإحياء الديني يدفع بالناس إلى الديانات التقليدية في مجتمعاتهم ويمنحها معنى جديدًا. كما أن العودة إلى الدين صاحبها تنقيات وتطهيرات للعقائد الدينية وإعادة صياغة للسلوك الشخصي والاجتماعي والجماهيري للتوافق مع الأفراد المتدينين (Huntington, 96).

ويؤكد هنتنجتون أن السبب الذي كان من المفترض أن يؤدي إلى موت الدين، كان هو نفسه السبب للانبعاث والإحياء الديني العالمي. حيث إنعمليات التحديث الاجتماعي، والاقتصادي والثقافي التي عمت أركان العالم في النصف الثاني من القرن العشرين هي من أكثر العوامل وضوحًاوبروزًا، وأكثرها قوة في الانبعاث الديني العالمي على عكس ما كان يُفترض أن تكون السبب في انتهاء الدين. فالجميع في حاجة إلى مصادر جديدة للهوية، وأشكال جديدة من الجماعات المستقرة، ومجموعة جديدة من القواعد الأخلاقية تزودهم بالشعور بالمعنى والهدف. والدين، سواء في تياره الرئيس أو اتجاهاته الأصولية، يلبي هذه الاحتياجات (Huntington, 97).

وهكذا نرى أن الدين يمدنا بالحلول، والجماعات الدينية تقدم الكيانات الاجتماعية الصغيرة لكي تحل محل تلك المجتمعات التي فُقدت نتيجة للتحضر. فالدين يمنح الناس هويتهم من خلال إبراز التمايز بين المؤمنين وغير المؤمنين. فمثلاً انهيار الشيوعية وفشل الأنظمة الاقتصادية الاشتراكية قد خلق فراغًا أيديولوجيًا. وحاولت المؤسسات الغربية أن تملأ هذا الفراغ بمبادئ الاقتصاديات الأرثوذكسية الجديدة والسياسة الديمقراطية. وربما جاء تأثير هذه الجهود في الثقافات غير الغربية ليجعل الدين يحل محل الأيديولوجية، وصارت القومية الدينية هي مصدر تحديد الهوية (Huntington, 97-100).

مما سبق نرى بوضوح تعقد قضية الهوية بشدة، مما جعل قضايا مثل قبول الآخر، والمواطنة وغيرها تحديات تقف في وجه المجتمع، وهذا ما يجعل دور المجتمع المدني دورًا هامًا وأساسيًا في إعادة هيكلة الهوية.

إعادة الهيكلة للهوية

من خلال الدراسات المتعددة للمجتمع المدني، يبدو جليًا أن التحول نحو الحضر (التحضر) مع تنظيماته الجديدة (الجمعيات الأهلية، النقابات وغيرها)، يمكن أن يسهم في إعادة هيكلة الهوية. والتحضر مع تنظيمات متعددة يخلق انتماءات وولاءات متعددة والتي ينتج عنها هويات متعددة. ويبدو واضحًا أن المنظمات غير الحكومية بقدرتها على المواءمة بين «التنظيمات القديمة» و«التنظيمات الجديدة»، يمكنها أن تسهم في مثل هذه الهويات المتعددة. وهي ما تخلق تعددية على أرض الواقع، وتحد من الانتماء المطلق الواحد للهوية الدينية. دون أن تتخلص منه. وفى هذا السياق، يسهم الدين في أساسات الهوية وكذلك في تنظيمات المجتمع المدني. الهوية الدينية تميل نحو الاستبدادية والتبعية، بينما نجد أن مأسسة الهوية (أي إضفاء الطابع المؤسسي على الهوية) من خلال المنظمات والتنظيمات المختلفة يساهم في المفهوم النسبي للهوية وكذا إمكانية اختيار هويات جديدة.

إن التحضر الذي يشجع تنظيمات المجتمع المدني الجديدة يسهم في بزوغ هويات جديدة وتحويل الهويات التقليدية إلى هويات لها تأثير إيجابي وبناء على عملية بناء المجتمع. غير أن هذه ليست وصفة سحرية تحدث تلقائيا في المجتمعات التي تتحرك نحو الحضر وتخلق تنظيمات جديدة للمجتمع المدني، بل هي عملية تتضمن إصلاح الخطط السياسية القائمة، إنها عملية تقلل من الصلة بين الامتيازات والانتماءات الدينية والقبائلية، كما أنها تثبت التعددية على شتى مستويات المجتمع وكذلك تؤسس اتجاهات ثقافية جديدة تساند هذه المفاهيم.

إن التنامي المتسارع للمجتمعات شبه الحضرية (حضر ريفية) أدى إلى نشوب صراع بين الهويات الفرعية وبين الهوية القومية. كما أن العودة القوية للقيم والتنظيمات القديمة كنتيجة لسياسات الدولة القمعية والفشل النسبي للتحديث أدى إلى تطور اتجاهات ثقافية فرعية. غير أن قدرة التنظيمات الجديدة للمجتمع المدني على التعايش مع التنظيمات القديمة وتشجيع الاتجاهات الثقافية الجديدة هي أمر لا غنى عنه. فمثل هذا التطور سوف يخلق هويات وولاءات جديدة. وتعددية الهويات والولاءات سوف تتجاوز المفهوم التقليدي للهوية الواحدة وسوف تشجع الانتماءات الجديدة فيما وراء الأسرة والقبلية والدين فإن الهويات المتعددة والولاءات التعددية هي المكونات الجوهرية للمجتمع المدني.

وكنتيجة لعملية إعادة هيكلة الهوية، يحدث تحول في مفهوم الأقلية. فالمواطنون يمكن أن يكونوا أقلية في جماعة وأغلبية في جماعة أخرى، والمواطنة تدل ضمنًا على مفهوم ديناميكي للأقلية يتجاوز التهميش ويؤكد على طبيعتها التعددية. هذا المفهوم الديناميكي للأقلية سوف يتأسس بواسطة مؤسسات المجتمع المدني، ويتثبت بواسطة الديمقراطية وينعكس في المواطنة. وهكذا فإن المجتمع المدني والديمقراطية من خلال المواطنة تحول المفهوم السلبي للأقلية إلى نشاط ديناميكي وتعددي.

الولاء

في هذا السياق يكون لدينا مفهوم جديد للولاء. فإن المشكلة التي تصاحب الإسلام السياسي هي إخلاصه للدين وحده. ولكن

www.christianlib.com

الولاء بمفهومه الأوسع سوف يشجع الفكر العقائدي السياسي الذي يتقبل الأفكار الأخرى ويؤمن بالتعددية والتنوع، ومن هنا سوف يساهم الولاء التعددي في تقوية المجتمع المدني. بدلًا من إضفاء الطابع المسيحي أو الإسلامي عليه. كما أن العقيدة السياسية التي تنتج مثل هذا المفهوم للولاء سوف تفتح الطريق للتفاعل بين العقيدة والمجتمع بطريقة ترسخ المواطنة. فالمواطنة ليست هي الدين ولكن الدين سوف يكون شريكًا في صياغتها. كما ستسهم الولاءات المتعددة في تثبيت دعائم المواطنة.

هذه الولاءات المتعددة سوف تسهم في إعادة تنظيم الهوية. كما أنه من الضروري تواجد فكر سياسي يعتبر الالتزامات الدينية ضمن مكونات منظومة الهوية. غير أن هذا المفهوم المرن والنسبي للهوية يحتاج إلى فكر ديني يؤمن بأنه لا يوجد من يمتلك الحقيقة المطلقة. وفي هذا السياق تصبح التعددية ذات جذور عميقة في السياق الديني، والذي يميل بطبيعته إلى الإيمان بوجود حقيقة مطلقة لا تقبل التعدد. وهذه الفكرة القائمة على الحقيقة المطلقة تعد من الأسباب الجذرية للمشكلات العقائدية في الوطن العربي. وسعيًا لتشجيع الفكر الديني الذي يعترف بالولاءات المتعددة والهوية التعددية وكذلك يتجاوز امتلاك الحق، هذا الفكر يتطلب توافر تفسيرات متعددة للنصوص الدينية.

الشمولية

إن التعددية التي تتم ممارستها في سياق من الشمولية تخلق تماسكًا وتكافلًا يتجاوز الدين والأسرة والقبيلة. وعندما يعمل الناس معًا على حل القضايا التي تواجه المجتمع، نجدهم يوحدون جهودهم للتغلب على الصعوبات والتحديات. إن الوطن العربي يعاني من الخلافات التي تنجم عن الانقسامات الدينية والعرقية والثقافية. لكن التعددية تتجاوز الانقسامات التقليدية وتشجع تنمية المجتمع المدني والديمقراطية. ويعد التماسك بين جماعات المجتمع المختلفة من بين نتاج مثل هذه التعددية. والتماسك في هذا السياق هو مفهوم اجتماعي واقتصادي وثقافي وسياسي وديني. وفي هذا السياق، يتمكن المجتمع المدني، من خلال هيكلة وتنظيم الناس في كيانات جديدة ومختلفة بأهداف جديدة، من ترسيخ قدر من التماسك والتضامن يتجاوز الانقسامات التقليدية.

المراجع

Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilization and Remaking of World Order*. New York: Simon&Schustr, 1996.

الدكتور القس أندريه زكي إسطفانوس

٤: ١ – ٩ نصائح ختامية

قبل أن ينهي بولس رسالته بالشكر على عطية الفلبيين، يقدم لهم بعض النصائح الختامية. فيخاطبهم بمقدمة مليئة بالحب والوداعة، وكأنها بداية جديدة أو رسالة أخرى يصفهم بولس بعدة صفات: بالأخوة كأنه يذكرهم بأنهم على قدم المساواة في المسيح، ثم محبوبون، ثم المشتاق إليهم (*epipothitos*). وقد تدرج بولس هنا في ثلاث درجات من الود ناحية الفيلبيين قبل أن يصفهم بأنهم: فرحه أو سبب فرحه، وإكليله وفي ذهنه مرة أخرى الإكليل الذي يأخذه الفائز في الألعاب الأوليمبية فيكون له مصدر فخر. وبعد كل هذا الإطراء يطلب منهم أن يثبتوا «هكذا» أي أكملوا ثباتكم في الرب في ضوء ما سبق أن وصفهم به (ع. ١). ثم يطلب من امرأتين: أفودية وسنتيخي، اللتين يتضح من كلامه أن بينهما خلافًا لا نعرف طبيعته وأسبابه، أن تتوحدا في فكريهما؛ وقد تكون هاتان الامرأتان شماستين في الكنيسة، وكان بينهما خلاف أو تسببتا في خلاف في الكنيسة. وربما كان كلام بولس السابق في الفصل الثاني بمثابة خلفية لهذا الخلاف، ولدينا هنا إشارة ضمنية إلى دور المرأة القيادي وأهميته في كنيسة فيلبي (ع. ٢).

ثم ينتقل بولس ويطلب من طرف ثالث يثق به ويعتبره شريكًا في خدمته. ولا نعرف لماذا خص بولس هذا الإنسان دون ذكر اسمه على الرغم من أنه يذكر اسم أكليمندس الذي يطلب منه نفس الشيء مع باقي المساعدين. وقد اقترح المفسرون عدة اقتراحات عن هوية ذلك الشخص. «فقالوا أنه ممكن أن يكون زوجًا أو أخًا لإحدى الامرأتين، أو أبفرودتس، أو تيموثاوس، أو سيلا، أو لوقا، أو شخصًا يُدعى سزيجوس (*sizigos*)، وربما كما يقول أكليمندس السكندري أنها قد تكون ليديا التي يقترح أن بولس كان قد تزوجها، أو قد يكون المسيح نفسه، أو أنه يخاطب الكنيسة كلها كوحدة في المفرد» (WBC, CD) (ع. ٣).

ومرة أخرى يختصر بولس حل النزاع في أن يفرحوا في الرب كل حين (ع. ٤)، طالبًا أن يكون رفقهم ولطفهم معروفين عند كل من حولهم، وبدون مقدمات يقحم بولس عبارة «الرب قريب» التي تعني أنه قريب زمانيًا ومكانيًا وقد لا تعني البُعد الأخيري لمجيئه ولكن تعني قرب الرب في معناها البسيط (ع. ٥)، ثم يكمل بولس نصائحه بأن لا يقلقوا على أي شيء بل أن يهتموا بالصلاة والدعاء حتى يسمع الله لهم ولا نعلم إذا كان بولس يتكلم في المطلق أم إنه يتكلم عن مشكلة خاصة يقلق الفيلبيين من أجلها (ع. ٦). وكنتيجة لما سبق سيحفظ سلام الله قلوبهم وأفكارهم (ع. ٧). ثم يختم بولس كلامه طالبًا منهم أن يفتكروا ويعملوا. أن يفتكروا في كل ما هو حق، وعالي المقام (*semna*؛ را. ١تي ٣: ٨)، وعادل (*agnos*)،

www.christianlib.com

وعفيف، ومتوافق عليه (*prosfilis*)، وصيته حسن. ثم يحصر هذه القائمة في كل ما هو للمدح أو لمكارم الأخلاق العامة. وأن يعملوا كل ما تعلموه، أو تسلموه، أو سمعوه أو رأوه. ثم أخيرًا يصلي أن يكون الله معهم واصفًا إياه بإله السلام لطمأنتهم (ع. ٨- ٩).

٤: ١٠-٢٠ شكر على العطية

يختم بولس رسالته بشكر الفلبيين على عطيتهم. ويبدأ الفقرة مشددًا على أنه فرح بالرب بعد أن سبق وطلب منهم أن يفرحوا بالرب في مناسبات عدة في الرسالة. وكان سبب فرحه أنهم يعتنون «يفكرون به» أو يهتمون به (ع. ١٠). ويستطرد الرسول للحديث عن الاكتفاء (ع. ١١). ثم يشرح بالتفصيل معنى ذلك، فيكرر ثلاثة تناقضات بين أن يتضع في احتياجاته ويستفضل منها، ثم يؤكد أنه تعلم السر بين الشبع والجوع، وبين الوفرة والنقصان (ع. ١٢). وقد قصد هنا أنه جمع بين تلك التناقضات وما بينها فكانت النتيجة طبيعية أن يستطيع كل شيء أو أنه يستطيع فعل كل ما سبق بسبب المسيح الذي يقويه (ع. ١٣). ثم يعود للنقطة الرئيسة مؤكدًا أنه لا يقلل من أهمية عطيتهم لكنهم فعلوا حسنًا، ليس بسبب تأمين احتياجه فحسب بل بسبب مشاركتهم له في ضيقه (ع. ١٤). ثم يؤكد دورهم الإيجابي من خلال مراجعة الماضي ويصف تفردهم بمساعدته منذ أن خرج من مكدونية (ع. ١٥). ثم يذكر أنهم سبق وأن ساعدوه لما كان في تسالونيكي (ع. ١٦). ويشدد بولس أن قضيته ليست العطاء؛ بل الثمر الذي يزيد في حسابهم بسبب عطيتهم (ع. ١٧). ثم يقدم لهم كشف حساب عن عطيتهم بأنه دفع ما عليه بل واستفضل من العطية التي قدموها له مع أبفرودتس واصفًا هذه العطية بأنها ليست مجرد قيمة مادية ولكنها ذبيحة مقبولة تصعد رائحتها للرب (ع. ١٨؛ را. ، خر ٢٩: ١٨). ثم يختم كلامه داعيًا أن يملأ الله ويسدد كل احتياجاتهم قارنًا ذلك بغنى الله (ع. ١٩). وأخيرًا يقدم تسبيحة قصيرة لله ويصفه هنا أنه «إلهنا» ليشرك فيلبيين في التسبيحة (ع. ٢٠).

يقدم بولس هنا نموذجًا لكيفية التعامل مع الاحتياجات المادية للخادم. فبولس في هذا المشهد يعاني كبعض خدام الشرق الأوسط بسبب احتياجاته المادية وحرجه في طلب العطاء. وهذا ما عبر عنه بتأكيده وهو يأخذ عطية الفيلبيين أنه مكتفٍ. ولكن في الوقت ذاته تخطى الرسول هذا الحرج من خلال تقديم الشكر والعرفان لهم، وهذا الشكر من شأنه أن يعزز فكرة المشاركة والعطاء وسيؤدي لتقدم الإنجيل.

٤: ٢١-٢٣ ختام

يصل بولس هنا لختام الرسالة بتقديم تحيته وتحية من معه، للذين في فيلبي بطريقة مختصرة وبدون تحديد لشخصيات كما في أغلب رسائله الأخرى. ولا يستخدم بولس في تحيته الختامية مصطلحاته المألوفة كما في نهاية رسائله مثل: «الوداع» (*erroso*) أو «بالتوفيق» (*eutichei*) (WBC, CD). لكنه يقدم تحية عامة لكل قديس في فيلبي (ع. ٢١؛ را. ١: ١) ناقلًا تحية كل من معه وبالذات (*malista*) من معه في بيت قيصر قبل أن ينهي بالبركة بأن تكون نعمة ربنا يسوع المسيح معهم جميعًا.

الأستاذ جون دانيال